قصص

طقوس حزينة

عفاف حنا

2025

طقوس حزينة
عفاف حنا

عندما عدت إلى البيت بعد انتهاء الدوام، رأيت وجوها كثيرة مكفهرة. كانت غرفة الجلوس مكتظة بالنساء.. بينما احتل الرجال غرفة الاستقبال. قدرت أن مصيبة قد وقعت.. لكني خشيت أن اسأل...؟

ألقيت تحية المساء وجلست على أول مقعد صادفني. تساءلت بعض النسوة في همس: يبدو أنها لا تعرف شيئا؟! شعرت بالانقباض والتوتر. بدأ العرق البارد يتفصد من جبيني. تفقدت بعيني أفراد عائلتي. أمي.. أبي.. شقيقتي.. إذن هل حدث مكروه لشقيقي الذي يدرس الهندسة في إحدى المدن الواقعة على ضفاف البحر الأسود؟ لقد حذرته أمي قبل سفره من مغبة تعلم السباحة. هل خالف نصيحتها؟! استبعدت هذا الخاطر لأنه لم يرق لي، كأن الأحداث الجسام تستأذن قبل الوقوع؟! تسارعت دقات قلبي. تحفزت للبكاء دونما سبب واضح. لاحظت شقيقتي اضطرابي. قالت، دون مقدمات، كأنها قرأت أفكاري: "وردتنا اليوم برقية من الصليب الأحمر".

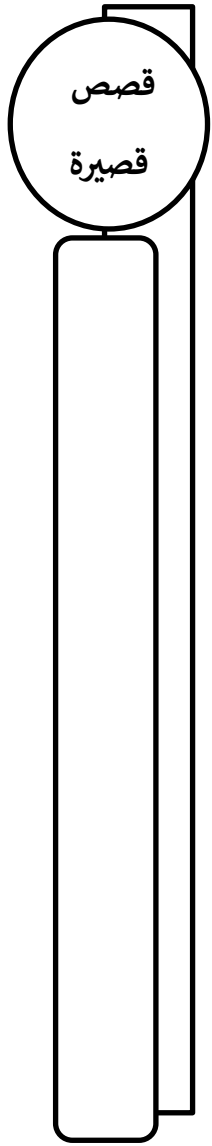

طقوس حزينة

عفاف حنا

طقوس حزينة

(قصص قصيرة)

2025

التصنيف

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (3675\7\ 2025)

بيانات الفهرسة الأولية للكتاب:

عنوان الكتاب	طقوس حزينة
تأليف	حنا، عفاف سليمان جريس حنا، 2025
بيانات الناشر	الزرقاء. عفاف سليمان حنا. 2025
الوصف المادي	122 صفحة
الواصفات	\\الأدب العربي\\ القصة القصرة\\ العصر الحديث
الطبعة	الطبعة الأولى

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

ISBN 978- 9923- 0- 1838- 5(ردمك)

كافة الحقوق محفوظة للمؤلفة

الإعداد الطباعي: محمد فتحي المقداد - تصميم الغلاف: أحمد طناش شطناوي

إربد. مكتبة الطلبة للطباعة والتوزيع.

مقدمة

بدأت رحلتي مع الكتابة منذ الطفولة حيث كانت لي، ولشقيقي مازن خربشات على الأوراق حظيت بدعم والدينا، وتشجيعهما الدائم لنا.

في منتصف عقد الثمانينيات من القرن العشرين نشرت بعض القصص القصيرة في الصحف المحلية، ثم اتجهت إلى كتابة المقالة الصحفية، وعلى مدى سنوات طويلة كتبت زاوية أسبوعية بعنوان "**من زوايا المدينة**" في "**جريدة أخبار الأسبوع**" التي كانت تصدر كل يوم خميس.

وكتبت أيضا في جريدة "**الجماهير**" لسان حال الحزب الشيوعي الأردني، وفي جريدة "**المجد**" وكانت تصدر كل يوم أثنين، حتى تجمع لدي مئات المقالات، ضاع الكثير منها وما زلت أحتفظ ببعضها.

بين دفتي هذا الكتاب (25) قصة قصيرة تتناول موضوعات متنوعة، للمرأة وللطفولة فيها نصيب. معظمها كتبت في الثمانينيات والتسعينيات من القرن الماضي. أول تسع قصص منها نشرت سابقا في "**صوت الشعب**" و"**الدستور**" و"**العرب اليوم**".

كان يجب أن يصدر هذا الكتاب قبل عشرين عامًا على الأقل، ولكني لم أفكر جديًا بالنشر، لولا بعض عبارات التشجيع التي سمعتها مؤخّرًا، والتي قيلت لي بصدق، حفزني فيها قائلوها، وجعلوني أعيد ترتيب حساباتي.

وإنني إذ أضع بعض وشوشاتي على الأوراق، بين يدي القارئ، أتمنى عندما يغوص بين سطورها، أن يجد على شواطئها نسمات لطيفة من المتعة والراحة للعقل والوجدان.

المؤلفة

عفاف حنا

امرأة

"القصة الفائزة بالمرتبة الثانية في مسابقة رابطة الكتاب"

أحاول عبثًا أن أنسى ما جرى الليلة الماضية.. وهذا اليوم المشؤوم بأكمله. يا لها من ليلة رهيبة! لا أدري كيف خطرت ببالي هذه الفكرة الغريبة: أن أفعل أيّ شيء يريحني من هذا الرجل الراقد بجانبي على السّرير.

وخلت نفسي اشرع بالتنفيذ. اخذت اعدد في سري جميع الطرق الممكنة للموت، واستبعدها واحدة إثر أخرى. الذبح.. منظر الدماء يفزعني. الخنق.. ماذا لو استيقظ وفشلت الخطة؟ الحرق.. طريقة لا تخلو من وحشية.

المسدس.. أخشى أن يسمع الجيران صوت الرصاص. السم.. كيف غاب عن بالي! يا لها من طريقة هادئة للموت، يصعب اكتشافها، خاصة إذا نفذت بمهارة.. كما أنها لا تحتاج إلى شجاعة كبيرة كباقي الطرق الأخرى. ولكن أي أنواع السموم اختار؟ آه.. الزرنيخ.. اذكر أني قرأت عنها يومًا في إحدى الروايات.. ولكن أين يباع وكيف ومن سيأتيني به؟ وأنا لا أخرج وحدي! وخارت عزيمتي، ولكني وجدت منفذًا حين تذكّرت أنه يوجد عندي زجاجة (فليدول). نعم سيبدو الأمر طبيعيًا جدًا! رسمت على شفتي ابتسامة باهتة سرعان ما تلاشت.

أعرف في نفسي العجز عن التنفيذ لأني أضعف من أن اقتل ذبابة، فكيف أذا تعلق الأمر بقتل نفس بشرية! بدأت أجراس الفضيلة تقرع في رأسي. شعرت بشيء يضيق بقبضته على

رقبتي ويكاد يخنقني فصرخت " ابعدوا عني حبل المشنقة. أنا بريئة.. والله العظيم بريئة".

أفاق محمود على صراخي. حسبني احلم.. حتى أنا نفسي لم أستطع التمييز إن كانت أحلام يقظة أو منام.. هل كنت في كامل وعيي؟!

لا أدري سوى أني لم أنم بعدها. وحين طلع النهار وذهب زوجي لعمله كالمعتاد. قررت أن اكسر روتين حياتي.

أتمرد. أثور. أفعل أي شيء غير مألوف. احسست بالثورة تكبر في صدري، لتصبح في حجم مارد ينتظر الوقت الملائم؛ لينطلق خارج القمقم، ودون أن أسمح لنفسي بأيّ مجال للتردّد، خرجت من البيت، وأنا لا أعرف إلى أين أتَّجه.

كانت بي رغبة في الذهاب إلى أي مكان أستطيع فيه أن أتنفس بحرية خارج جدرا ن سجني، وشعرت بسعادة لا تقاوم!

وجدت نفسي أقرع باب إحدى الجارات، التي سبق أن زارتني ثلاث مرّات.. دون أن أجرؤ على ردّ الزيارة.

ثرثرنا طويلا.. أحسست بمتعة في الاستماع لحديثها.. وحين كلّمتني عن السّعادة التي تُحلِّق فوق أجواء بيتها، شعرت بالسُّخط على قدري.

إلى متى سأظل أسبح في بحر الفراغ هذا؟ وأغوص في أعماق أحزاني، ويجرفني الإحساس بتفاهتي. الحبّ.. كلمة سمعت عنها.. لكن ليس لها وجود في قاموس حياتي.

تعوّدت أن أسمع كلمة "لا" دائمًا.. دون أن يكون لي الحقّ أن أقولها، ولو مرَّة واحدة! علّموني ألّا أتَّخذ أيّ قرار يتعلّق

بشخصي.. حتّى عندما تقدّم محمود لطلب يدي، لم يتردّد أبي في القبول دون أخذ رأيي. حاولت يومها أن أثور وأعترض. لم تشفع لي دموعي ولا نفعت توسُّلات أمّي.

فقد كان في نظر أبي عريس (لُقطة)؛ إذا جاد به الزّمان مرّة، فلا يجود مرتين! وبدأت رحلة الحياة مع شخص لا أريده. كان من الممكن أن أرضى بنصيبي.

وأقنع لو أنّ محمود منحني ما تطلبه كلّ امرأة من رجُلها من أمان واستقرار.. وحبّ وحنان.. لكنّه كان بخيلاً جدًا، رغم غِناه، ويعاملني بقسوة.

فرض عليّ قيودًا ثقيلة لا أقوى على حملها. منعني من تبادل الزّيارات مع أهلي وصديقاتي، ومن مغادرة البيت بمفردي. ليس هذا فحسب بل كان شديد الغيرة. يتَّصل بي هاتفيًّا كلّما

خطر بباله أن يفعل.. لا لشيء.. إلا ليتأكَّد من وجودي في البيت.

لا أدري كم من الوقت مضى.. لكنّي عندما هممت بالانصراف نظرت إلى ساعتي، وشعرت بالارتياح. موعد الغداء لم يحِنْ بعد.

ولأوّل مرّة لمعت في ذهني فكرة. أن أواجه زوجي بصراحة. إذا لم يُغيّر أسلوبه معي.. سأطلب منه الطّلاق. رنَّت الكلمة في أذني ووجدت لها وقعًا جميلاً.

على عتبة باب بيتنا تسمَّرت. وقفت مكاني كأنّي أنتظر دعوة رسميّة، أو إذنًا خاصًّا بالدُّخول. سرت البرودة في أطرافي. ارتعشت شفتاي. ذهبت عني شجاعتي بنفس السُّرعة التي أتت بها. نسيت تمامًا كلّ الكلمات التي أعددتها في ذهني

لأقذف بها في وجهه. كان هناك في الصّالة.. وقد اصطبغ وجهه بحُمرة تُحاكي لون الأريكة التي يجلس عليها.. بينما أخذ يفرك يديه بعصبيَّة. ارتعدت.

مظهره العامّ يوحي أنّه على وشك الانفجار. نهض من مكانه. جذبني من يدي بقوّة. لطمني كفًا.. كاد يوقعني أرضًا. أغمضت عينيّ في انتظار تلقّي المزيد من الصّفعات.. ولكنّه اكتفى بهذا.. وفتحت عينيّ على صوت يُزمجر كالرّعد:

-لماذا جئت؟ عودي حيث كنت.

- كـ... نـ...ت عـ نـ د .. ال.. جارة

-كيف تخرجين دون إذني؟!

وجدت أنّ الكذب في مثل هذا الموقف هو المنقذ الوحيد

-نادتني.. لتسألني.. كيف يصنع شراب.. التمر هندي.

-هل مجرّد سؤال بسيط كهذا.. تستغرق الإجابة عليه وقتًا طويلاً. أنا جالس هنا منذ نصف ساعة أنتظر تشريفك. طبعًا هذا لا يهمّك.

وازدادت لهجته حدّة، وهو يكرِّر السُّؤال

-من سمح لك بالخروج؟ أجيبي!

-لا أحد.. ولكن..

-ولكن ماذا؟ كفى. لا أريد سماع المزيد. والله لو عدت لمثلها.. فلن تحصدي سوى النَّدم. هل سمعت؟

أجبت في لهجة انكسار وتوسُّل

-أنا آسفة إنّها أوّل وآخر مرّة أخرج فيها دون إذنك. أعدك بذلك سامحني، أرجوك!

هدأت ثورته. عجبت كيف خبا أُوارها بمثل هذه السّرعة! كنت أتوقّع ألّا يصدّقني.. أن يوجعني ضربًا.. أن يطردني إلى

بيت أبي.. لكنّه لم يفعل شيئًا.. ولم تطُل دهشتي، فقد خرج في المساء، وأخذ معه مفتاح الشقّة بعد أن أغلق الباب بإحكام!

***-نشرت في جريدة "صوت الشعب"**

المأتم

صدمة:

عندما عدت إلى البيت بعد انتهاء الدّوام، رأيت وجوهًا كثيرة مكفهرة. كانت غرفة الجلوس مكتظّة بالنِّساء.. بينما احتلّ الرّجال غرفة الاستقبال. قدَّرتُ أنّ مصيبة قد وقعت.. لكنّي خشيت أن أسأل...؟

ألقيت تحيّة المساء، وجلست على أوّل مقعد صادفني. تساءلت بعض النِّسوة في همس: يبدو أنَّها لا تعرف شيئًا؟! شعرت بالانقباض والتوتُّر. بدأ العرق البارد يتفصَّد من جبيني. تفقَّدت بعينيَّ أفراد عائلتي. أمّي.. أبي.. شقيقتي.. إذن هل حدث مكروه لشقيقي، الذي يدرس الهندسة في إحدى المدن الواقعة على ضفاف البحر الأسود؟.

لقد حذَّرته أمّي قبل سفره من مغبَّة تعلُّم السِّباحة. هل خالف نصيحتها؟! استبعدت هذا الخاطر؛ لأنّه لم يرق لي، كأنّ الأحداث الجسام تستأذن قبل الوقوع؟!

تسارعت دقَّات قلبي. تحفَّزت للبكاء دونما سبب واضح. لاحظت شقيقتي اضطرابي. قالت، دون مقدمات، كأنَّها قرأت أفكاري: "وردتنا اليوم برقيَّة من الصَّليب الأحمر".

سألتها وأنا أغالب دموعي: "ماتت جدَّتي إذن؟". هزت رأسها بالإيجاب. انحدرت دمعتان على خدِّي.

قالت إحدى السيِّدات، تُطيِّب خاطري: "لا داعي للبكاء. اطلبي لها الرَّحمة فقط".

قالت أخرى: " ليتنا نعيش لنصبح في عمرها".

وسمعت جُملاً أخرى مماثلة، لم أنظر في وجوه قائلاتها، لكنّ الجهود والمحاولات، التي بذلت للتخفيف من حدَّة الألم في نفسي.. هي التي أطلقت لدموعي العنان؛ فسمحت لسحب الأحزان أن تمطر لتغسل أوجاع قلبي.

بعد منتصف اللَّيل عندما خلا البيت إلَّا من سكانه، واتتني الجرأة أن أقدِّم لوالدي التعازي.

أول أيّام الحداد:

اتَّشحت أمّي بالسّواد وحذوت حذوها. شقيقتي لم يعجبها هذا الأسلوب في الوفاء للأموات. تمرَّدت عليه. نعتته بالتخلُّف!!

لم يستطع أبي أن يخفي حزنه العميق.. ولا سخطه على الظُّروف التي منعته من الاشتراك في تشييع الجثمان. أحسسنا معه أكثر من أيّ وقت مضى بكلّ ما تحمله كلمة مُبعَد من معان.. وما تثيره في النفس من مشاعر.

كانت جدّتي تحتلُّ مكانة خاصّة في نفسه. طلبت منه أمّي اليوم، أكثر من مرّة، أن يُحدّث النّاس عنها.. لتخرجه عن صمته لكن.. هل حزن النّاس لموتها حقًا؟! لم أستطع، رغم شعوري بالألم الشّديد، أن أمنع نفسي من مراقبة تصرُّفات المُعزِّين والاستماع لأحاديثهم.

أدركت لماذا كانت جدَّتي تكره الموت وتخافه! الأموات يوارون الثَّرى.. الأحياء تلتئم جراحهم بسرعة.. والحياة تستمر!!

ثاني أيَّام الحداد:

مر بطيئًا متثاقلاً كما اليوم الأوّل. تبعتني شقيقتي إلى غرفة نومي. ثرثرنا قليلاً ثم انسحبت إلى غرفتها، حيث أنّها هجرتني – منذ شهور – ونقلت حوائجها إلى الغرفة حديثة البناء، التي كانت أمّي قد طلبت من أبي بناءها من أجل الضُّيوف.

تمدَّدت في سريري. ليست بي رغبة للنوم. قرأت، دون تركيز، عدَّة صفحات من كتاب **الطيّب صالح** "**دومة ود حامد**". شقيقتي تفضِّل الكاتب **حنا مينة**.

أبي يقرأ ما هبَّ ودبّ من الكتب، لكنّه مولع بشكل خاصّ بعيون التراث وروائع الأدب القديم. وجدّتي ما كانت تهوى إلا كلام الله المدوَّن في كتابه. هل حقّقت كلّ أحلامها قبل أن يخبو سراجها؟!

غدًا تنتهي الأيّام الثلاثة التي حدّدناها لقبول التعازي. بعد غد أعود لمزاولة عملي كالمعتاد. **الطيّب صالح**.. أحاول أن أرسم له صورة في مخيّلتي. طويل، نحيل، أسمر اللون، أكرت الشّعر، أفطس، متوسّط العمر، يرتدي اللِّباس الإفرنجي.. وربّما أحيانًا "الجلابيّة".

أمّي لا تستطيع الاحتفاظ بجميع أكياس الأرز والسكَّر، التي قدَّمها لنا المُعزُّون. وافق أبي على عرض قدّمته لنا جارتنا، زوجة البقَّال، بأن تشتري منه خمسة شوالات.. بدينار واحد أقلّ من سعر السّوق لكل شوال.

لم أعد قادرة على لملمة أفكاري. طويت الكتاب. ضغطت على زرِّ النُّور. ساد الظلام.

مفاجأة:

في اللّحظة التي كان فيها النّوم يستعدّ لإطباق جفوني.. أخترق حاجز الصمت وزلزل هدأة اللّيل.. طرق عنيف على الباب. لم أنهض لأفتحه، راجية أن يقوم أحد ما بهذه المهمّة بدلًا منّي.

الأخبار السيّئة لا تستطيع الانتظار، فمن عساه يكون زائر منتصف اللّيل؟ وأيّ شرّ يحمله لنا في جرابه؟!

سمعت أبي يقول "يا ساتر" وقبل أن يرفع المزلاج، خبّأت رأسي تحت الغطاء.

***-نشرت في جريدة "صوت الشعب"**

العانس

لاحظت ليلى أنّ النّظرات تلاحقها. لم تعرف كيف تفسّرها؟ استغراب.. إعجاب.. سخرية.. رثاء.. أم مزيج من هذه المشاعر؟! مرآتها أكدَّت لها أن وجهها ما زال جميلاً رغم سنوات عمرها الأربعين.

إذن ماذا يضير النَّاس إن هي اعتنت بمظهرها اليوم أكثر من المعتاد؟! حلقت بعيدًا في سماء أحلامها. تخيَّلت منظر العشّ الجميل الذي سيجمعها وإيّاه.

خاطبت نفسها: لطالما امتدح نشاطي في عملي، وأثنى على إخلاصي، لكنّه أمس أطرى جمالي.

شرودها لفت انتباه الزّملاء والزّميلات. بدأت الهمسات والتعليقات. ظلّت عنها لاهية إلى أن أيقظها من عالم الرّؤى الجميلة التي صنعها خيالها قول أحدهم: "دعوها، وشأنها لعلها غارقة في الحبّ؟!

انفجرت الضَّحكات من كلّ جانب. "الحبّ.. وهي في هذه السنّ؟!"

فاجأتهم بقولها: "لم لا؟"

التفّوا حولها وفي عيونهم نظرات متعطّشة لمعرفة تفاصيل أوفى.. لكنّها شاءت لفضولهم إلا يرتوي، ورأت أن تردّ على أسئلتهم التي انهالت عليها بقولها: "ستعلمون كلّ شيء في الوقت المناسب".

عندما حان موعد الانصراف من العمل؛ استدعاها المدير العام إلى مكتبه. طرقت الباب. دخلت بخطى واثقة.. وقلب مفعم بالآمال. نظر إليها وقال: "تعلمين ثقتي الكبيرة بك". صمت برهة تناول خلالها سيجارة وأشعلها.. بينما تعلَّقت نظراتها بشفتيه.. في انتظار سماع المزيد مما ستبوحان به.

شعرت بالدّماء تتدفَّق حارة في وجنتيها. تمنَّت لو تستطيع أن تقول له: "دعك من الشكليَّات.. والمقدمات" لكن حياءها منعها.

أخذ نفسًا من السِّيجارة.. نفث الدخّان.. واستطرد: "عندي اجتماع هامّ في الرّابعة مساء مع بعض الشخصيَّات البارزة في حقل التجارة. سأحتاج لشخص أثق به؛ لتدوين بعض المعلومات الهامّة. وقع اختياري عليك. هل لديك مانع؟".

أجابته وكأنّ إبريقًا من الماء البارد صبّ فوق رأسها: "يسعدني أن أكون عند حسن ظنّك سأحضر في الوقت المحدَّد".

بدأ العرق يرشح من جبينها. شعرت برغبة ملحَّة في البكاء وقد خاب رجاؤها. أمسكت بمقبض الباب. همَّت بمغادرة الغرفة. استوقفتها كلماته: " قد نتأخَّر في العمل، ولكن لا تقلقي. سأقوم بإيصالك إلى بيتك بسيَّارتي".

عاد الأمل يطرق باب قلبها: "لعلَّه رتَّب الأمر، ليبدو وكأنَّه لقاء عمل؟!"

حوالي السَّابعة مساء كانت تجلس بجواره في السيَّارة. انتظرت بلهفة أن يبدأ الحديث. بعد برهة صمت خالتها دهرًا، قال: "ما أعجب هذه الدّنيا. نحن نلتقي كلّ يوم في محيط العمل، ومع

ذلك لا يكاد أحدنا يعرف عن الآخر شيئًا. حدِّثيني عن نفسك"

دهشت لطلبه.. لكنها حدثته دون تردُّد عن وحدتها.. حيرتها.. عذابها.. وعن حبِّها الذي وضع له القدر نهاية أليمة. ثمّ سكتت، وهي تغالب دموعها.

-اسمحي لي أن أقول إنك أخطأت. ما كان يجب أن ترفضي الزواج بعد موت خطيبك.

أخذ نفسًا عميقًا وأضاف: "أنا أيضًا أعيش وحيدًا"

- "ألا ترى معي أنّ الوحدة قاتلة؟"

- "على العكس تمامًا"

كان جوابه على سؤالها أشبه بصفعة.. وبينما بدأ يسرد عليها تفاصيل أكثر عن حياته. أخذت تصغي له بنصف حواسها..

أما النِّصف الآخر فلم يعُد معها.. وشيئًا فشيئًا فقدت لذَّة الاستماع.. وأصبحت جامدة كتمثال.

-"ماتت زوجتي منذ سنين. ابني الوحيد يدرس في باريس.. آه يا آنستي ما أجمل الحريَّة.. أنا سعيد.. و.. "

تنَّبهت فجأة على صوت عجلات السيَّارة عندما توقفت. مدّ يده لمصافحتها. شكرته ببضع كلمات.. غمغمت بأخرى غير مسموعة. أسرعت بالنزول. دخلت غرفة النَّوم، واستلقت على السّرير.

لم تشعر في يوم من الأيّام بمرارة الوحدة كما تحسّ بها الآن.. رغم أنّها تعيش وحيدة منذ موت والديها قبل ثلاث سنوات. لامت نفسها لانسياقها وراء سراب خادع، وتساءلت: "هل كنت حقًا اطمع في الزّواج منه؟! أم أنّي بتُّ أخشى من لقب

"عانس" لذا أردت أن أركب قطار الزواج، ولو من آخر محطَّة.. ودون التدقيق في هويّة من سيرافقني في رحلتي!"

حانت منها التفاتة إلى صورة خطيبها، التي ما زالت تحتفظ بها في غرفتها منذ وفاته. هبَّت واقفة. انتزعتها عن الحائط.. وبيد مرتجفة ألقت بها أرضًا.. وعلى صوت تناثر الزّجاج، بدأت دموعها تنهمر. عادت للاستلقاء على السّرير. غمرت وجهها بالوسادة، وانخرطت في بكاء مرير.

***- نشرت في جريدة "صوت الشعب"**

حفلة راقصة

لست أدري كيف توطّدت العلاقة بيني وبين نادية، وهي التي تنتمي لعالم يختلف عن عالمي؟! وضعت نفسي في مأزق حرج حين قبلت دعوة وجَّهتها لي، لحضور حفلة راقصة تحييها بمناسبة عيد ميلادها.

إمكانيّاتي الماديّة المتواضعة لا تسمح لي بشراء ثوب جديد.. ولا هديَّة تناسب صاحبة الدّعوة الثريّة. ومما يضاعف حيرتي وعذابي، خشيتي أن تكشفني تصرُّفاتي.. فتنبئ ضيوف نادية، الذين يروني لأوَّل مرَّة، أنّي لست منهم

ارتديت أجمل ثوب عندي، ولم أشعر بالارتياح، وأنا ألقي على نفسي نظرة أخيرة في المرآة قبل مغادرة بيتي.

توقّفت عند محل لبيع الزُّهور. اشتريت باقة ورد لاعتقادي أنّ الورد هديّة نافعة لجميع المناسبات. كتبت عبارة جميلة على بطاقة الإهداء.

قرأتها بصوت مسموع "لم أجد خيرًا من الورد هديّة تهدى إلى الورد". ذيلتها باسمي. ابتسمت. غادرت المحل. تابعت سيري. لكنّ شعورًا بالرّهبة لازمني طوال الطّريق إلى بيت صديقتي.

فتحت لي الخادمة الباب. قادتني إلى الصّالة التي يقام فيها الاحتفال. أحسست بالغربة منذ اللّحظة الأولى لوصولي. جميع الوجوه لا أعرف أصحابها. ووجه نادية ضاع بينها. مهمَّة البحث عنها تبدو عسيرة.

لحظات من الارتباك والترقّب حاولت أن أبدِّدها بالتحديق في السّقف، حيث تتدلّى ثريّات أربع، انشغلت بعض الوقت بعدد "اللَّمبات" في كلّ منها. ضوء ساطع منبعث من آلة تصوير لمع فجأة في عيوني.

تتبعت اتّجاه الضوء.. لمحتها.. جميلة.. في ثوب من الحرير الأزرق، وقد التفت حولها مجموعة من الفتيات في حلقة دائريّة.

اقتربت منها. حيَّيتها. ناولتها باقة الورد. لدهشتي واسفي معًا، وضعتها جانبًا. لم تقرأ بطاقة الإهداء، لم تطلب منَي الانضمام لشلَّتها. تابعت حديثها، متجاهلة وجودي. حاولت إقناع نفسي أنَّها ما تعمَّدت إهانتي.

جلست في ركن مُنزوٍ. بدأت الموسيقى تصدح، والأجسام تتمايل.. وعيناي تراقبان. جميعهم يجيدون الرَّقص. الشَّابات أناقتهن مبالغ فيها. ووجوههن مرسومة بعناية. الشّباب أيضا أناقتهم ملفتة للنظر.

انقضت نصف ساعة لم أبرح خلالها مكاني. فجأة.. لمحته يتقدَّم نحوي.

- أتسمحين لي بهذه الرقصة يا آنسة؟

وبما أنّي كنت أعرف أنّ آداب السّلوك في عرف هؤلاء القوم تقضي بألّا ترفض الفتاة أيّة دعوة للرّقص توجّه إليها من شاب، وضعت يدي في يده الممدودة نحوي، ونهضت بتثاقل، مُلبِّية الدّعوة التي لم يكن بي رغبة شديدة في قبولها.

"رقصة التانجو يلزمها شخصان" هكذا يقول مطلع الأغنية الإنجليزيّة، التي بدأنا الرّقص على أنغامها.

-لم أتشرّف بمعرفة اسمك؟

-خديجة

-خديجة. وأهلك كيف يُدلِّلونك "خدوج"

وقهقه ضاحكًا.

شعرت باشمئزاز شديد، وودت لو أصفعه على خدّه.. لولا أنّي خشيت من غضب صديقتي إذا أهنت أحد ضيوفها، فآثرت أن أبتلع الإهانة بصمت، وقلت في سرِّي: "يا ربّ دع هذه اللّيلة تمرُّ بسلام".

-"اسمك قديم. وشكلك غريب. وأراهن أن هذه هي أوّل مرّة تأتين فيها إلى حفلة مختلطة.

-نعم.. وما العيب في ذلك؟

-العيب.. أنّك لا تجيدين الرّقص يا..

وقهقه ضاحكًا مرّة أخرى.

ومرّة أخرى تحلَّيت بالصَّبر لئلاَّ أُوجِّه له لطمة قويّة على فكّه، ولذت بالصَّمت لعلَّه هو الآخر لا يجد مجالًا لمتابعة الحديث. لكنّه أضاف بصفاقة، وهو يلامس بخدِّه خدِّي، والشُعور بالاشمئزاز يتعاظم في نفسي.

-هل تعلمين أنّك لو غيّرت طريقة تصفيف شعرك.. وزينتك.. وارتديت ثوبًا آخر غير هذا الثوب.. فستصبحين أجمل فتاة في الحفلة؟ لكنّك بحاجة لدروس كثيرة حتّى تصبحي فتاة عصرية.

سألته بتهكُّم: "هل أنت على استعداد لإعطائي هذه الدّروس؟!".

-لم لا؟ إلا أذا كنت تفضِّلين أن تبقي كما أنت؟

-"دقَّة قديمة يعني؟"

-تعجبني صراحتك. إذن اتَّفقنا. سنبدأ من اللَّيلة. سأعلمك فنّ الرّقص.. وستلاحظين في نهاية السَّهرة أنَّك أحرزت تقدُّمًا في هذا المجال. وعندها ستشكرينني.

-...

-عن إذنك لقد وعدت "سوسو" بالرّقصة التالية (أشار إلى إحدى الفتيات).. ولكن سأعود لك في الرّقصة التي تليها. سنرقص معًا إلى نهاية الحفلة.

وتنفَّست الصُّعداء وأنا أتحرَّر من بين يديه. "اتفقنا.. هل قلت له أنّي موافقة أن أجاريه في سخافاته؟!"

عدت للجلوس في الزّاوية التي رآني فيها "شوشو" عندما عرض علي مراقصته. للأسف لم تتح لي الظُّروف أن أسأله

"هل شوشو هو اسمك الحقيقيّ أم اسم الدَّلال؟" لأني عرفت اسمه فقط بعد أن ابتعد عنّي ليبحث عن "سوسو"

أخذت أتأمّل كلّ من حولي.. بدوا لي للحظات أشبه بمهرِّجين على حلبة سيرك. أحاديثهم لا معنى لها. وجوههم لا يعرف لونها الأصلي. وصديقتي نادية بدت لي أشبه بـ"البلياتشو" بالأصباغ والمساحيق التي طلت بها وجهها. واكتشفت أنّهم، للتدليل، ينادونها "نانا"

وبدأت أفكِّر بطريقة أسرع فيها بالهرب دون أن يلاحظني أحد.. لأنّي لا أستطيع أن أخوض تجربة الرّقص مع "شوشو" مرّة أخرى. من يدري ماذا يمكن أن يحدث إذا خضتها ثانية؟!

حتما لن تفتقدني صديقتي، وقد لا تكتشف غيابي، وأن اكتشفته وسألتني عن السّبب عندما نلتقي صباح الغدِّ في المكتب الذي نعمل به منذ عام.. سأعلِّل غيابي بصداع مفاجئ.

خدمتني الظُّروف حين توقَّفت الموسيقى فجأة، وأعلنت صديقتي أن العشاء جاهز، وأن متابعة الرّقص ستتمّ بعد العشاء. تنفّست الصُّعداء.

بدأ الشّباب من كلا الجنسين يتوافدون إلى غرفة الطّعام (زرافات ووحدانا) بينما تسلَّلت بخفَّة إلى الشُّرفة.. ومنها إلى باب الفيلّلا الذي يؤدّي إلى الحديقة.

هبطت السَّلالم بسرعة، وأنا أتساءل ترى كيف سيتصرّف "شوشو" حين يكتشف اختفائي.

هل سيغضب.. سيتهمني بالبلاهة.. سيضحك ساخرًا.. أم سيهزّ كتفيه بلا مبالاة، ويبحث عن فتاة أخرى يقضي بصحبتها بقيّة السّهرة؟! توقّفت لحظة في الحديقة أتأمّلها.. كأنّي ألقى عليها نظرة الوداع. وألقيت نظرة أخيرة على الفيللا. أليست هذه زيارة الوداع؟ هل من المعقول أن تقودني قدماي إلى هذا المكان مرّة أخرى؟!

وقبل أن أعبر الباب الخارجي مددت يدي، وبحركة لا إرادية قطفت وردة.. تبيَّن لي فيما بعد أنّها صفراء اللّون. وما هي إلّا لحظات، حتّى بدأت أسمع وقع أقدامي على الرّصيف. تنفَّست بعمق، وشعرت بالرَّاحة وأنا أتنفَّس عبير الحريّة.

سقطت من يدي الوردة. لم أتوقّف لألتقطها.. وتابعت المشي.

***-نشرت يوم الخميس 28 شباط 1985 في جريدة "صوت الشعب"**

ثرثرة في المكتب

قالت سامية موجهة حديثها لهند: "ألا تحلمين بالزّواج من شاب رائع مثل باسم؟"

تناولت هند قطعة حلوى من العلبة التي مدتها نحوها سامية. نظرت إلى باسم. مطّت شفتيها، وأجابت: "لا بأس به" ثمّ أردفت، وهي تتثاءب: ولكنّي لا أحلم بالزّواج الآن. فقط أحلم بالنوم!!

اختلطت الضحكات الأنثويّة بتلك التي أطلقتها حناجر الرّجال.. في حين نقلت سوسن بصرها بين زميلتيها.. وقالت: "لعلّ هند تؤيَّدني في أنّ زواج الأقارب أفضل؟"

فتح باسم فمه ليحتجّ.. إلّا أنّ هندًا لم تمهله، وخاطبت سوسن بقولها: "لا يا شيخ.. ابن عمّي عمره الآن عشر سنوات فقط.. هل أنتظره ليكبر؟"

ارتفعت الضَّحكات من جديد.

أحسّ سمير برغبة في تصعيد روح المرح، التي سيطرت على الجوّ؛ فقال مشاركًا بالحديث: "سوسن مخطوبة لابن عمّها، لذا تحاول أن تجعلنا نتعاطف معها، أما باسم وسامية فهما بالتأكيد يؤيِّدان غرام المكاتب".

أراد باسم أن يتكلّم، لكن هند أضاعت عليه الفرصة مرّة أخرى: "ماذا تقصد يا سمير؟ كان باسم العازب الوحيد في مكتبنا، قبل أن تخطفه سامية، فهل تريدني أن أبقى دون زواج؟

-أو أن تخطفي باسم من سامية.

طفح الكيل بباسم فاعترض قائلاً: "تخطفني سامية.. تتلقَّفني هند.. حرام عليكم. لقد شبّهتموني بالكرة!!"

دمعت عيون الجميع من كثرة الضّحك. فيما غير كمال مجرى الحديث: "ما أبخلك يا هند! ألا تريدين أن تقومي بواجب الضّيافة نحونا اليوم؟!"

حدجت هند باسمًا بنظرة استفزاز، وقالت: "سامية وزّعت علينا الحلوى احتفالًا بخطوبتها.. وعلى خطيبها أن يطلب لنا الشّاي والقهوة"

دبَّت الحميّة في نفس باسم: "أتعتقدين أنّك أكرم منّي يا هند؟ اقرعي الجرس، وليقرّر كلّ منكم ماذا يحبّ أن يشرب"

بينما أخذوا يحتسون الشّاي والقهوة، قالت هند فجأة: "يا جماعة نسيت أن أخبركم أنَ اجتماعنا الأسبوعيّ هذا يجب أن ينفضّ باكرًا"

تطلعت إليها العيون بدهشة. قال كمال مازحًا: "أكيف تجرئين على طردنا يا هند؟"

-لا.. ولكن بالأمس قبل انصرافنا من العمل أخبرني المدير أنّه لن يسافر اليوم إلى العقبة كعادته كلّ خميس.

هبّت سوسن مذعورة: "عليك اللّعنة يا هند. ليتك أخبرتني من قبل. لم أكمل طباعة التقرير بعد".

انسحبت. تبعها الآخرون.

شعرت هند، وقد خلا الجوّ، برغبة ملحّة في أن تضع رأسها بين يديها، وتستسلم لنوم لذيذ. ولكن كيف السّبيل إلى ذلك

والمدير يمكن أن يحضر في أيّ لحظة.. دون إحداث جلبة تنبئ عن قدومه. هناك سؤال دائمًا يراودها: "من أين يستورد أحذيته؟!" لكنَّها تخجل أن تسأله.

أحضرت مجموعة من الملفَّات. بعثرتها على المكتب أمامها، لتوحي لكلّ من يدخل غرفتها أنّها غارقة، حتّى أذنيها بالأعباء الوظيفيّة.

تناولت بحركة عشوائيّة أحد الملفّات. أمسكت القلم.. لكنّه سقط من يدها.. بينما كانت تحاول منع نفسها من التثاؤب. تركت القلم يتدحرج على الأرض. لم تلتقطه.

الصّداع يلهب رأسها. شبح النّوم يطاردها. الثّقل يزحف إلى جفنيها، ويكاد يطبقهما. عادت بها الذّاكرة إلى اللّيلة الماضية "يا أبي هل كان من المفروض أن تجعل بيتنا مسرحًا لحلّ

الخلافات؟ ماذا يهمّني إن كان غسّان سيطلِّق زوجته أم سيبقيها على ذمَّته؟ حتّى تتبرّع أنت بجمع أهلها وأهله.. محاولا إصلاح ذات البين، وجاعلاً من نفسك حكمًا للفصل بين الفريقين المتنازعين!".

بين آونة وأخرى كان يعلو أحد الأصوات، ثمّ يخفت ليرتفع صوت آخر.. إلّا أنّ الضّجيج لم يكن السّبب الحقيقيّ الذي جعل النّوم يهجر عيني هند. الفضول دفعها للسّهر لمعرفة ما ستسفر عنه المباحثات والمشاورات.

الموظّفون يعملون بجدّ ونشاط. هند لا تدري ما تفعل. همّت بمغادرة المكتب. تراجعت. فكرت: "سأنتظر المدير حتّى يحضر.. ثم أطلب إجازة.. أو أتظاهر بالمرض" حين أعود للبيت سأنام حتى المساء.. لا حتّى صباح الغد".

رنّ جرس الهاتف بغتة. رفعت هند السمّاعة. التقطت أذناها صوت المدير على الطّرف الثّاني من الخطّ

-ألو هند.. غيّرت رأيي. أنا ذاهب الآن إلى العقبة.

تنهَّدت بارتياح، وقالت: "حسنًا كما تشاء. هل هناك تعليمات تحبّ أن تفضي بها إليّ؟".

-قولي لسوسن أن تعطي التقرير لكمال؛ ليدقِّقه ثمّ يضعه على مكتبي. وقولي لباسم.. واطلبي من سمير.. ولا تنسي..

واصلت هند الاستماع بذهن نصف شارد. أجابت ببرود: "نعم حاضر" وأغلقت السماعة. ما زال المكتب يعجّ بالنشاط. لم تنقل هند للموظفين شيئًا من تعليمات المدير. قرّرت اختصارا للوقت ألّا تذهب للبيت. وضعت رأسها على المكتب متوسِّدة ذراعيها.. ونامت.

***- نشرت في جريدة "صوت الشعب"**

خيانة

لن أعود لدروب سلكناها معًا. اليوم سقط القناع، وكشف عن زيف الوجه. تعرّت الحقائق، وظهرت بشاعة الأشياء. كان يومًا ربيعيًّا دافئًا حين التقينا أوّل مرة. لا أدري كيف تكرّرت لقاءاتنا.. ولا لماذا أصبحت لنا أحلامنا.. كم تعانقت أصابعنا. وما أكثر الشّوارع التي رسمنا عليها خطواتنا.. حتّى يخيّل إليّ أنّها أصبحت تميّز وقع أقدامنا! ومع ذلك سمحت لنفسك أن تختزل ببساطة عامين من عمرك وعمري!.

وصديقتي سعاد أغمدت خنجرًا في قلبي دون أن تدري.

-حدّثيني عن جارك ماجد

-جاري!!!

-جارك الوسيم الذي يوصلك أحيانًا بسيّارته. لقد قلت لي مرّة أنه...

-ماذا يهمّك من أمره؟؟

منذ مدة وهو يهاتفني يوميًّا، إنّه يلح عليّ طالبًا مقابلتي.

اسودَّت الدّنيا في عينيّ. أوشكت غيومي أن تمطر.. لكنّي تجلَّدت.

-هل ضربت له موعدًا؟

-لا.. إلّا أني وعدته أن أفكّر جديًّا بالأمر.

-أيروق لك؟

-يبدو أنّه شاب لطيف.

-إعجاب متبادل إذن؟

-أعتقد هذا.

تمنّيت لو أستطيع أن أطبق أصابعي على عنقها.. ولكن.. ما ذنبها؟!

أطرقت رأسي. سألتني: "ما بك؟" أجبت بصوت مخنوق: "أحسّ بصداع شديد".

-هل أحضر لك كوبًا من الماء؟

-أنت!!!

غابت بضع دقائق. عادت وفي يدها الكوب. تأمّلتها مليًا بصمت. أيعقل أن تكون هي سبب دائي.. ثمّ تطلب شفائي؟!

قسمًا قبل اختفائي يا ماجد سأثير في حياتك زوبعة.

-اسمعي يا سعاد أنت صديقتي، وأحب أو أنصحك. ماجد لا ينفعك

-لماذا؟؟؟

-إنّه شاب طائش. سيّئ الخلق وسكّير.

-عجبًا!!! كنت أظنّ أن رأيك به أفضل..

-ذلك أني لم أكتشف حقيقته إلا مؤخّرًا.

لم تجبني فأردفت: "على أيّ حال إن أردت مقابلته.. أنت وشأنك.. ولكنّي حذّرتك.

أتراه تعمّد إهانتي؟ لماذا اختار إذن زميلتي، التي أعمل وإيّاها في نفس المؤسّسة؟!.لو أنّه بحث عن فتاة أخرى لا أعرفها.. لاستطعت أن أغفر لها ولكنّ.. زميلتي!!!

وضعت يدها اليسرى فوق جبينها مخفية عينيها. وهي تصافحني، بدت كأنها تقاوم دموعها. وأنا بت أتعجل الوصول إلى بيتي لتنفجر براكين الغضب، وتطلق حممها خارج صدري.

***- نشرت في جريدة "صوت الشعب"**

طقوس حزينة

(أربع قصص قصيرة)

اللقاء الأخير

احتوى يدي بين يديه. رفعها إلى شفتيه. ولثمها. بينما تحاشيت النّظر في عينيه. ومددت بصري نحو السّماء. وتمتمت بدعاء.

اتّجه إلى اليمين. اتّجهت إلى اليسار. التفت. لوّح لي بيده. رفعت يدي لتعانق عن بعد يده. تابعت السّير. والدّموع تسيل على وجنتيّ ساخنة كدموع الشّمعة.

وحيدة

الثلج يتساقط بغزارة. والأرض ترتدي ثوب عروس.

وأنا أجلس وحيدة.. مع المدفأة.. وقطّتي.. وجريدة.

القطّة تتمسَّح بي.. وتهزّ ذيلها سعيدة.

وأنا أنظر من النّافذة إلى التلال البعيدة.

لعلّ هذه الآلة البليدة، تحمل لي من هناك، عبر أسلاكها الباردة.. صوتًا دافئًا.. وقصيدة

العيد

ليل وظلام وسكون.. الدّقائق تمضي كأنّها قرون.

برق ورعد وزخّات مطر.. وأنا وقنديلي وحدنا نسهر.

لست أفكّر بثوب جديد.. ولا بعقد من الذّهب الخالص يزيِّن هذا الجيد.

ولكنّي أحلم بسلة ورد تُهدى إليّ صباح يوم العيد.

تدحرجت على خدّي دمعتان.

العيد سيأتي غدًا. ومن كان يهديني الورد رحل إلى مكان.. حين يسافر إليه النّاس لا يرجعون.

الخريف

الأوراق الذهبيّة تتناثر كما تتناثر أوراق العمر.

والشّجرة العارية تقف في البستان بلا رفيقات.

هناك عصفور على أحد أغصانها يؤنس وحشتها.

وأنا أرقب المشهد بصمت. وأختلس نظرة إلى رفيقي الذي يرقد بهدوء على الطّاولة.

وينتظر منّي أن أداعب بأناملي صفحاته.. بينما تغوص عيناي بين السّطور.

***-نشرت في جريدة "الدستور".**

ثلاث حالات للعشق

(ثلاث قصص قصيرة)

مراهقة

دخلت غرفة نومي. ألقيت حقيبتي المدرسيّة على السّرير. وقفت على أطراف أصابعي. أخذت أدور حول نفسي بخفّة الفراشة. شعور بالنَّشوة يغمرني. اضطجعت على السّرير. أغمضت عينيّ. تحسَّست استدارة نهدي. تنهَّدت. نهضت. عدت أتحسس جسدي أمام المرآة. استقرَّت يدي مرّة أخرى على النّهدين. شعرت، أكثر من أيّ وقت مضى، بنضوج أنوثتي. سمعت أمي تناديني. لم أكترث. تابعت التحليق مع أحلامي. أتراه كان يبتسم لي أثناء الحصة.. أم لجارتي؟! لي أم لها.. لها أم لي؟! تكرّر النّداء. تأفَّفت. غادرت الغرفة.. وشعور بالحيرة يملأ قلبي وعقلي.

موعد

في لقائنا الماضي أبدى إعجابه باللّون الوردي. قال: إنّه يضفي انعكاسًا جميلاً على بشرتي الفاتحة وشعري الأشقر. هل سيراني جذاَّبة بردائي الأحمر؟ وشعري.. هل أدعه ينسدل على كتفيّ؛ لتلعب به الرّيح كيفما تشاء.. أم أعقصه بشريط من لون ثوبي؟!

طلبت من السّائق أن يرفع صوت المذياع. أخذت أدندن بصوت يشبه الهمس مع **أم كلثوم** وهي تغني: "**أنت عمري**". ما سرّ الحبّ المفاجئ لها.. وقد كنت لا أطيق سماعها؟! ألِئنَّه أخبرني أنّ أغانيها تطربه؟!

النصف بعد الرّابعة.. الخامسة.. لم يأت..

كيف يتلهّف للقائي قبل يومين.. وينتزعني من ذاكرته اليوم؟!

بدأت أحسّ بشيء يشبه الزّحف الجليديّ يسري في بدني.. فيحدث ثقلاً في رأسي.. رعشة في أطرافي.. واضطرابًا في خفقات قلبي.

هل سأراه غدًا.. بعد غد.. أم لعلَّنا لن نلتقي أبدًا؟

أتراه سيعتذر لي؟ سيتعلّل بالنسيان؟. سيتجاهلني كليًّا.. ويختفي من حياتي؟ هل أثور في وجهه؟ هل أمنحه فرصة للدّفاع عن نفسه.. وإبداء عذره؟ أم أنسى كلّ ما حدث وأكتفي بأن أضع يدي في يده وأقول: انتظرتك طويلاً.. افتقدتك جدًّا!! سألتني أمّي عندما عدت إلى البيت: "كيف حال صديقتك ايمان؟".

أجهشت بالبكاء وأجبت: "مريضة يا أمّي.. مريضة جدًّا".

ضياع

طيفه ينقر باب ذاكرتي بعنف. أستحضر أطيافًا أخرى.. لكنّها سرعان ما تبهت أمام لمعان اسمه في سماء ذهني. ابتسم وأنا أحاول أن أتذكّر كلّ كلمة قالها لي. تتّسع ابتسامتي حين أغوص فيما وراء الكلمات. يقصد..

لا يقصد؟ هل أسأله صراحة إن كان..؟ لا. لا يجوز!؟ هل أقول له أنّي..؟ مستحيل!!!

أحاول أن أغيّر مجرى أفكاري. أفتح كتابًا ما.. أقلّب صفحاته.. تتوه نظراتي بين الحروف والكلمات.. دون أن ألتقط منها شيئًا. ولأوّل مرّة لا تفلح الموسيقى في تهدئة أعصابي. أقف. أمشي بضع خطوات. أجلس.

تزداد طرقات طيفه على باب ذاكرتي. أحسّ بالضّعف. ينهشني الضّياع. وأتساءل: لماذا تأبى صورته الابتعاد عن مسرح خيالي. وأنا.. هل احتل فعلاً منزلة أثيرة في نفسه.. أليس من المحتمل...؟

أخبِّئ وجهي بين يدي. وانفجر في البكاء.

***-نشرت في جريدة "صوت الشعب"**

يوم ماطر

نظرت من النّافذة. رأيت سحبًا قليلة متناثرة تركض في السّماء. قرّرت أن أرتدي ملابس خفيفة.

أخذ مذياع الجيران يصدح بأغنية **فيروز "سمرا يا أم عيون وساع .. والتنّورة النيليّة** ". ابتسمت لأنّي كنت أمسك بيدي تنّورة نيليّة ارتديتها على عجل مع بلوزة بيضاء.

طليت شفتيّ بعناية. وضعت على رموشي طبقة كثيفة من الماسكارا، وعلى وجنتيّ لمسة خفيفة من أحمر الخدود، وغادرت البيت متَّجهة إلى موقف سيّارات عمّان الزّرقاء.

عندما أصبحنا على مشارف مدينة عمّان، كانت شمس نيسان الدّافئة قد احتجبت تمامًا خلف الغيوم. وما كدت أنزل من

السيّارة، وأخطو بضع خطوات، حتّى بدأت السّماء تمطر بغزارة. سمعت وقع أقدام تتعقبّني. قرّرت أن أتجاهلها.. ثمّ أحسست بها بمحاذاتي.

-صباح الخير.

ألقيت نظرة سريعة على صاحب الصّوت، لم أتبيّن خلالها ملامحه جيّدًا. قلت له بصوت خافت: صباح الخير.

كان الرّجل يحمل مظلّة، عرض عليّ أن أرافقه في المشي تحتها.

البلوزة المصنوعة من قماش رقيق باتت ملتصقة بجسدي، وقطرات الماء بدأت تنفذ إلى لحمي، بدا لي العرض مُغريًا، ومع ذلك قلت له بأدب: لا. شكرًا.

باغتني بقوله: "آه.. فهمت.. خذي (الشمسيّة) لك وحدك. ويمكنك أن تَرُدِّيها لي فيما بعد."

مددت يدي لأتناول منه المظّلة، ثمّ تراجعت، وقلت له مرّة أخرى: لا. شكرًا.

أخذت أرتجف من البرد؛ فحاولت أن أوسِّع خطواتي. ظلّ الرّجل الغريب يسير بجانبي دون أن يكلِّمني. رمقته بطرف عيني أكثر من مرّة، وخيِّل إليّ أنّه كان يراقبني ويبتسم.

تنفَّست الصُّعداء؛ عندما اقتربت من العمارة التي يقع فيها مكتبي. خطر ببالي أن أتوقّف لأسأل الرجل: لماذا تتبعني؟ إلّا أنّ الفرصة ضاعت منّي؛ لأنّه سبقني إلى باب المصعد، وأشار بالدّخول، وضغط على الكبسة التي تؤدّي إلى الطّابق الثاني.

دهشت وسألته: كيف عرفت أنّي...؟

قال: أنا أيضًا أعمل في هذه العمارة، وفي الشركة التي تحتلّ الطّابق الرّابع.

ضحكت. وضحك الرّجل.

يلزمني نصف ساعة على الأقلّ؛ حتّى أصبح في حالة أستطيع معها أن أبدأ العمل.

نصف ساعة أحتسي خلالها كوبًا من الشّاي أُدفِّئ به عظامي، ثمّ أعيد تصفيف شعري وترتيب هندامي.

شعرت بالامتعاض؛ عندما رأيت مكتبي يغصّ بالمراجعين، والمدير كان قد بكَّر في الحضور.

نظرت إلى تنُّورتي التي تكرمشت من مياه الأمطار، وصارت في حالة يرثى لها. رنَّت في أذني كلمات تلك الأغنية التي تغنيها **فيروز** "..." فهززت رأسي وابتسمت. مددت يدي إلى كومة الملفَّات الجاثمة أمامي. وتناولت واحدًا منها، وشرعت أقلِّب

أوراقه. وسرعان ما بدأت أعمل بنشاط ومرح، وطيف ذلك الرَّجل يداعب خيالي.

***-نشرت يوم الأحد الموافق 4 حزيران 2000**

في جريدة " العرب اليوم"

قاع المدينة

قال صديقي: " يشقى الإنسان ليحصل على منزل فخم وأثاث فاخر. أنا لا أملك إلّا القليل من متاع الدّنيا، ومع ذلك عندي كلّ ما أحتاج إليه!"

وضع المفتاح في جيبه ودلفنا معه إلى بيته الذي أزوره لأوّل مرّة، فقد تعوّدنا أن نلتقي إمّا في المقهى أو النّادي.

تلفّت حولي حين قادني إلى مطبخه، ليشعل وابور الكاز، ويضع عليه إبريق الشاي. كان ثمّة زير ماء، ورفّ صفَّت عليه بعض الأدوات المنزليّة البسيطة.. وعاء كبير للطّبخ وآخر أصغر. مقلاة. صحون. ملاعق. كاسات، تدلّ الترسُّبات في قعرها أنّها تستعمل لشرب الشاي تارة والماء تارة أخرى. وهناك أيضًا

على الحوض الذي تغسل به الأواني إسفنجة و(باكيت سيرف).

أمّا الغرفة الوحيدة التي تتكوّن منها الشقَّة؛ فإن نظرة خاطفة كانت كفيلة بتفحُّص كلّ محتوياتها. حصير. سرير. كرسي. طاولة عليها مسجِّل وبعض أشرطة (الكاسيت). ملابس معلَّقة على مسامير مغروزة في الحيطان. حقيبة يعلوها الغبار، يخيَّل إليَّ أنّها فارغة أو لعلها تحوي في جوفها بعض الملابس الداخليّة.

جلسنا على الحصير. أخذنا نحتسي الشّاي، ونثرثر على أنغام الموسيقى المنبعثة من المسجّل الجديد نسبيًّا.

قال صديقي مفاخرًا: "اشتريته قبل سنة بثمانين دينارًا ادَّخرتها بصعوبة! ومنذ عدّة أشهر، بدأت أوفِّر مبلغًا آخر؛ لأصلح به أسناني.. ولكن مع الأسف يوم أمس تبخَّرت مُدَّخراتي كلّها!"

لم يمهلني لأسأله: "كيف؟" إذ تابع حديثه قائلاً: "لا تستغرب. الفقراء أيضًا يجدون من يطمع بممتلكاتهم! حضر ابن شقيقتي لزيارتي. تعشّينا ونمنا.

ذهبت في الصّباح لأشتري خبزًا وصحنًا من الحمُّص. عندما عدت؛ كان ضيفي قد غادر بيتي بعد أن استولى على نقودي! إنّ الثلاثين دينارًا التي كانت بحوزتي. مبلغ تافه جدًّا بالنّسبة لبعض الناس، لكنّي حزنت لفقدها، مثلما قد يحزن (**بيل غيتس**) فيما لو خسر شيئًا من ملايينه!".

سألته: "من هو بيل غيتس؟!"

أجاب: "رجل أمريكيّ الجنسيّة.. لعلّه عظيم الأهميّة! إذ بينما كنت أسهر في المقهى ذات ليلة، كانت القناة الأولى للتلفزيون قد خصّصت ساعة كاملة للحديث عنه.. ولم أكن قد سمعت باسمه من قبل!".

ظلّ صديقي يتحدّث معظم الوقت.. في حين استخدمت أذني أكثر من لساني. دون أن يفوتني أنّه كان يتصنّع المرح.. وفي داخله مرجل مليء بالأحزان.

عند منتصف اللّيل ودَّعته وانصرفت، بعد أن أيقنت أن عزوفه عن الزواج، ليس سببه إيمانه بفلسفة معينة في الحياة، وإنّما ببساطة لأنّه عاطل عن العامل أغلب الأحيان. قد يمارس مهنًا مختلفة من وقت لآخر، لكن أحبَّها إلى نفسه – كما قال لي – تجارته بالخردوات التي يشتريها بأثمان بخسة، ويبيعها بربح بسيط.

في اليوم التالي لمحته في قاع المدينة.. في شارع سقف السّيل تحديدًا.. كان خدّه الأيمن متورمًا.. بينما كان يساوم رجلاً ما على بيع قطعة الأثاث الوحيدة الثّمينة التي يملكها.

حاولت ألا أدعه يراني، وأنا أنزع ساعتي من معصمي، لأساوم زبونًا آخر.

الفرح المر

سأل الابن أمه: "هل حقًّا سنأكل لحمًا اليوم يا أمي؟"

رمقته الأمّ بنظرات حنونة وأجابت: "نعم".

انطلق مسرعًا، والبسمة تعلو وجهه، ليزفّ البشرى لإخوته الأربعة.

تنهّدت الأم بعمق. كاد الأولاد أن ينسوا طعم اللّحم؛ لأنّهم لم يتذوَّقوه منذ أكثر من شهرين، حين فصل الأب من عمله. ومنذ ذلك التاريخ اعتاد ربّ الأسرة؛ أن يخرج كلّ صباح في جولة للبحث عن عمل، يعود منها خائبًا عند منتصف النّهار. إلّا أنّه قبل مغادرة البيت هذا الصباح، أعطى زوجته كلّ ما معه من نقود، وطلب منها أن تشتري شيئًا من اللَّحم؛ لتعدّ

طعام الغداء. حين أرادت الاعتراض على هذا الإسراف، طمأنها، وقال: بأنه يأمل أن تسفر المقابلة التي سيجريها اليوم عن فوزه بالوظيفة التي وعد بها.

ما كادت الأمّ تنتهي من تنظيف البيت، وتفرغ من طهو الطّعام؛ حتّى فوجئت بعودة زوجها. قال كأنّما ليؤكّد الشّكوك التي تولّدت في نفسها، عندما رأت وجهه المتجهِّم: "لم يحالفني التوفيق". حاولت إخفاء حزنها، وقالت لتطيب خاطره: "ستفرج إن شاء الله".

تحلّق الأولاد حول الأب، وقالوا بصوت واحد: "أبي سنأكل لحمًا هذا اليوم". سحبوه من يده، وأجبروه على الجلوس معهم حول المائدة.

صفّق أحدهم عندما لمح أمه قادمه وبين يديها صينيّة، ما لبثت أن وضعتها على الطّاولة. تصاعدت رائحة المعكرونة السّاخنة لتملأ جوّ الغرفة.. فيما تبادل الأب والأم نظرات الرِّضا والسّعادة.

فجأة.. بدون مقدمات.. انقلب الفرح إلى شبه مأتم.. حين تناول أصغر الأبناء سنًّا قطعة من اللَّحم، وقال مخاطبًا أمه: "أهذا هو اللّحم الذي وعدتنا به؟! لا أريد الغداء. أريد قطعة كبيرة من اللّحم.. دجاجة!!" وأعاد قطعة اللّحم التي كانت بيده إلى الصينيّة.

علا الوجوم وجوه إخوته، واختفت نظرات الاستحسان والفرح من أعينهم. ذلك أنّ الأم لم يكن باستطاعتها شراء أكثر من أوقية ونصف من اللّحم، لذا طلبت من الجزّار أن يفرمها

قطعًا صغيرة، معتقدة أنّها بعملها هذا ستنصف الجميع.. بحيث ينال كلّ فرد من الأسرة نصيبه.

فيما كانت الأم تبذل جهودًا مستميتة؛ لإقناع الأولاد بعدم الإضراب عن الطّعام، انسحب الأب إلى إحدى زوايا الغرفة وأجهش بالبكاء.

لوحة

كانت المرأة التي لا يزيد عمرها عن خمسة وعشرين عاما تشبه ثمرة صيف ناضجة، بينما بدت طفلتها ذات الأربعة أعوام مثل برعم صغير توشك أكمامه أن تتفتَّح. كانتا مثل لوحة مكتملة أبدعتها ريشة فنان. لوحة ينقصها فقط أن توضع في إطار، وقد زادها جمالا وبهاء، ذلك التناقض بين الأم وابنتها. تناقض ليس فقط مبعثه اختلاف العمر، بل أيضًا عدم التطابق في المظهر الخارجيّ والتصرّفات. كانت الأمّ تقف بخشوع ووقار يتناسبان مع ملابسها الدّاكنة، التي كانت تغطّي كلّ ما فيها ما عدا وجهها وكفيها، بينما كانت الطّفلة دائبة الحركة كجندب، ومرحة كعصفورة صغيرة لم ينبت ريش جناحيها بعد، وقد أطلّت كتفاها السمراوان من بلوزة بدون أكمام بلون الحليب،

أمّا تنورتها التي تحاكي عرف الدّيك في لونها؛ فقد ارتفعت لتكشف عن ساقيها وتصل إلى منتصف فخديها.

وما بين الفينة والأخرى، كانت الأم ترمق طفلتها بنظرة حبّ وحنان تشوبها الحسرة.. وربّما الحسد أيضًا!! يخيّل إلّي أنها كانت تخاطب نفسها بهذه الكلمات: امرحي يا بنتي، وانطلقي كما تشائين، فبعد عدة سنوات ستكبرين، وسيكبلك المجتمع حينئذ بقيود كثيرة. وباسم العادات والتقاليد ستفقدين بساطتك وعفويَّتك، وستخسرين حريتك في اختيار ملابسك وفي أن تكوني سيّدة نفسك.

سوف يراقبون كلّ حركاتك وسكناتك، ويحصون عليك عدد نسمات الهواء التي تدخل رئتيك؛ فتصبحين عندئذ مثلي عجوزًا في العشرين!!

وكنت أقف هناك في الطّابور المجاور للطّابور الذي تقفان في مقدّمته، أتأمَّلهما بصمت وإعجاب، حين جاء الباص وابتلعهما في جوفه، مع ركّاب آخرين، وانطلق مسرعًا مخترقًا شوارع المدينة، بينما الحوت الذي سيبتلعني لم يأت بعد.

عصفورتان

-الجدّات اللّواتي نقرأ عنهنّ في الكتب، ونشاهدهن في التلفزيون، دائمًا طيّبات. هادئات. وقورات. يحببن أحفادهن حبًا جمًا، ويروين لهم الحكايات الطّريفة المسلِّية الممتلئة بالحكمة.

أمّا جدتي؛ فيبدو أنّها ليست جدّة حقيقية؛ لأنّها تختلف تمامًا عن أولئك الجدّات. عندما تأتي لزيارتنا تكثر من زجرنا، وتأنيبنا وتتَّهمنا، نحن أحفادها بأنَّنا نرهق أعصابها بصخبنا وضجيجنا.

ذات مرَّة تجرَّأت، وطلبت منها أن تحكي لي حكاية. وبختني وقالت إنّها لا تعرف كيف تقص الحكايات. أحيانًا أحبها لأنّها تغدق علينا الهدايا والحلوى، وأحيانًا أخرى أتخيّلها ساحرة

شريرة، لكنّي لا أستطيع أن أصارحها بذلك خوفًا من غضبها!.

صمتت الصّغيرة، بينما بدأت صديقتها بالبوح فقالت:

-الأمّهات في السّينما والتلفزيون حنونات جدًا ولطيفات. والابتسامات لا تفارق شفاههن. إنهنّ يذرفن الدّموع الغزيرة، فقط إذا تعرّض أيّ واحد من أبنائهن لمكروه. أمّي دائمة العبوس. تثور لأتفه الأسباب. أحيانًا تضربنا، وتقول إننا مصدر شقائها وتعاستها، وأنّ والدنا عندما رحل عن هذه الدّنيا تركنا عبئًا ثقيلاً عليها. أنا لا ألمس حنانها أبدًا؛ فهي دائمًا مشغولة عنّا. اعتادت أن تتركنا منذ الصّغر في رعاية الخادمات، حيث تذهب في الصّباح إلى عملها، وفي المساء تمارس نشاطات متعدّدة؛ فهي سيّدة أعمال ناجحة، أو امرأة غير عاديّة. هكذا تقول عن نفسها! لكن أكثر ما يؤلمني أنّها ليست عادلة

كالأمّهات اللّواتي نسمع عنهنّ في الحكايات. ذات مرّة مرض أخي؛ فسهرت بجانب سريره حتّى الصباح، وظلّت تضع له الكمّادات الباردة فوق جبينه؛ حتى ذهبت عنه الحمَّى.

وعندما مرضت أنا، بعد فترة، لم تحطني بالقدر الكافي من الرّعاية والاهتمام. إذ يبدو أنّها تفضّل أخي عليّ، بالرّغم من أنه لا يحبّها أكثر مما أحبّها أنا!

سكتت الطفلة الثانية. وبعد لحظة أردفت قائلة:

-سأتعلّم منذ الآن كيف أصبح أمًّا حنونة عندما أكبر. وجدَّة حكيمة. لطيفة وهادئة مثل جدّة ليلى التي أكلها الذئب.

كرسي الاعتراف

قالت الصّغيرة: إني أحاول أو أتذكّر خطاياي؛ لأعترف بها للكاهن غدًا.

صمتت لحظة، ثمّ أشرق وجهها بابتسامة، فأضافت: سأخبره أنّي ضربت أخي الصّغير.. وماذا بعد؟.

صمتت ثانية، وأطرقت رأسها مُفكِّرة، وقد بدا على وجهها الوجوم.

قلت لها في محاولة لحثِّها على التذكُّر: لعلك يا صغيرتي عصيت أمر أبيك أو أمّك؟

تنهَّدت، وقالت: لست أدري؟ ربّما. سأعترف له بهذا أيضًا.

نظرت إلى صديقتي، والدة الطفلة، وانفجرنا بالضّحك.

سألتني: لماذا تضحكين؟

أجبتها: يا لبراءة الأطفال! تؤرِّقهم تلك الأخطاء الصّغيرة، فيعترفون بها ويندمون عليها، بينما الكبار يرتكبون الخطايا والحماقات الكبيرة، بعضهم يواصل مشوار الحياة، دون أن يرفّ له جفن، أو تهتزّ في بدنه شعرة.

والبعض الآخر قد يندم ولكن هيهات يعد فوات الأوان!!

وأنت ما الذي يضحكك؟؟

لم تجبني. التقت عيوننا. وغرقنا في الضّحك مرّة أخرى!!

براءة

تناولت من يد أمها قطعة الحلوى، وأخذت تقضمها بفكر مشغول وقلب حزين.

(لماذا عيّرتني بساقي العرجاء؟! إنّني أكثر منها ذكاء. هذا ما قالته لي المعلِّمة؛ عندما شاهدتني أبكي. وقالت لي أيضًا: إنّ الغيرة نهشت قلب سوسن؛ لأنّي فُزت في المسابقة، وربحت الجائزة! لا يجب أن أكره سوسن لئلاَّ أصبح شرِّيرة، وأمي أخبرتني ذات مرّة أنّ الأشرار يذهبون إلى الجحيم.

إذا عرضت عليّ غدًا نصف شطيرتها.. هل أقبل؟ وإذا طلبت منّي نصف شطيرتي.. هل أعطيها؟ ولو سألتني أن أساعدها في حلّ مسائل الحساب...؟).

استبدَّت بها الحيرة لحظة. ثمّ غمر النُّور وجهها.. فتنهّدت، وقالت: سأسامحها هذه المرّة أيضًا!!

انفعالات

هل يمكن أن يكون الحرير في خشونة العوسج.. وأن تحوي قطعة السكَّر في جوفها مرارة الحنظل؟

لم يخطر ببالي أبدًا، وأنا أنظر في عينيها، أنّه خلّف تلك الشلاّلات الهادئة من النّور تُخبِّئ عواصف ورعود!! وابتسامتها.. ما كانت تنبئ إطلاقًا أنّها تخفي وراءها كثبانًا هائلة من الجليد!!

كيف استطاعت أن تتفوَّه بكلّ تلك الكلمات، وأن تُوجّه لي كلّ هذه الإهانات؟ وهل كان يجب أن تذكِّرني بأنّ والدي يعمل "فرّاشًا" في الشّركة التي يتربَّع والدها على كرسيّ إدارتها؟

لطالما غفرت لها أخطاءها، وزلّات لسانها!! ولكن هذه المرّة.. لو حاولت أن تكلِّمني؛ سأتجاهلها. سأجعلها تفهم ضمنًا أني نزعتها، وإلى الأبد، من دفاتر أيَّامي!! وهذا الصَّقيع الذي يغلِّف روحها.. كفيل بأن يبعد عنها كلّ النّاس. ويومًا ما ستجد نفسها وحيدة.. وحيدة!! وحينئذ ستذوب كثبان الجليد. وتغمر المياه الباردة قلبها.. فيغرق فيها شيئًا فشيئًا!!

أخذت أتخيّل بنشوة مشهد الغرق؛ إلى أن غلبني النُّعاس فنمت نومًا هادئًا وعميقًا.

لوعة البنفسج

خمس سنوات مرّت على وفاتها، وما زلت أحتفظ بقصاصة الصّحيفة التي قرأت فيها رثاءها. لم أتعرّف إليها أثناء حياتها، لكنّ رحيلها المأساوي أثّر فيّ حينذاك، وها هو الآن يوقظ الجمر الرّاقد في رماد نفسي المسكونة بالآلام والأحزان.

كان ذنبها الوحيد أنّها أحبّت رجلاً لم ير فيه ذكور العائلة الفارس المنشود.. فكان لا بدّ لهذا الدم أن يراق على يد أحدهم!

حاولت مرارًا أن أتخيل ملامح ذلك الرّجل الذي نثر البنفسج فوق قبرها، وبكاها بلوعة على صفحات الجريدة التي ما تزال قصاصتها تقبع في أحد أدراجي، والتي من خلالها عرفت حكايتها.

وكم تمنّيت أيضًا لو أعرف شكل ذلك المغوار، الذي قرّر في لحظة اشتعال أن يكون عمرها قصيرًا.. كما الزنابق! أما تلك المرأة التي جفّت في صدرها ينابيع الأمومة، لا يسعدني أبدًا أن تضعها الأقدار في طريقي!!؟

لا أدري لم تلح عليّ ذكراها في هذا اليوم بالذّات؟! هل لأنّ قلبي يحدّثني بأنّ جريمة مشابهة توشك أن تقع أمام عينيّ؟! لكنّ الشّاة التي ستساق للذبح هذه المرّة ليست غريبة عنّي! كثيرًا ما حضنتها، وروّيتها بدموعي وحناني، إلى أن تفتّحت أكمامها، وباتت شهيّة كزهرة رمّان يبلّلها الندى!.

لماذا أخضع وإيّاها لقسوتهم وأنانيَّتهم ونزقهم؟! كيف سأحتمل فراقها إلى الأبد.. وهل سيكون لحياتي معنى بدونها.. وقد تغلغلت في أعماقي.. وغرست كلّ بصماتها في كلّ ذرّة من كياني؟!

ألن أسمع بعد اليوم خرير ضحكاتها.. وأمسح اللُّؤلؤ إذا تساقط على وجنتيها؟! ألن أضمّها إلى صدري.. وأتركها تغفو ويداي تداعبان سنابل القمح على كتفيها؟! ألن أزجرها وأعنِّفها.. ألن أدلِّلها وأُقبِّلها؟

كانت القصاصة ما تزال في يدي حين سمعت صوت إطلاق الرّصاص. قفزت مذعورة، وفي نيتي أن أصرخ في وجه الرّجل الذي عشت معه أجمل سنوات عمري: الآن طلَّقني. حياتنا معًا باتت مستحيلة!! لكنّ القدر لم يسعفني.. والرّصاصة التي خلته سيزرعها في صدري.. طرحته أرضًا.. وحوَّلته إلى كومة من لحم ودم!

اغتيال

كانت وحيدة تقتات الضّجر.. وعطشى مثل أرض تشتاق للمطر.

عندما التقته أوّل مرّة، رأت في عينيه صدقًا، لم تلمحه في عيني أيّ رجل من قبل. ورأى في عينيها نبعا من الحنان، كفيلاً بأن يروي ظمأه، ويعوّضه عن سنوات الحرمان. فأحبّ كلّ منهما الآخر. وكانت هذه بداية الأحزان وليست نهايتها.

اكتشفت فجأة أنّها ليست مقطوعة من شجرة، كما كانت تظن، إذ ظهر لها أقارب وأصدقاء وجيران ومحبّون كثر، كلّهم يدّعون الحرص على مصلحتها.

قالوا لها: أنت تحملين شهادة جامعيّة وهو خرّيج مدرسة ثانويّة. أنت تعملين في وظيفة إداريّة بأحد البنوك، وهو يعمل في ورشة لتصليح السيّارات. أنت لم يجرؤ أحد أن يمسّك بكلمة سوء.. وهو صاحب أسبقيّات.. وباختصار شديد إنّه لا يناسبك فهو طين وأنت فرقد!

قالت لهم: لا أفهم لم تحاولون إقصائي عنه، ولا تريدون أن أقترن به؟ كنت جائعة ذات يوم فلم تطعموني. عريانة فلم تكسوني. محرومة من لمسة حنان.. فلم يربِّت أحد على كتفيّ ليواسيني ويعزيني.. أين كنتم؟ لماذا حين ظهر هذا الرّجل في حياتي اعترضتم طريقي! ثمّ ما دمتم ترون أنّي ذات شأن عظيم.. لماذا لم يحبّني أيّ واحد منكم، بمثل الصّدق الذي أحبّني به هو؟ لقد اعترف لي أنّه سُجن، ذات مرّة، لأنّه كان جائعًا فسرق، لكنّه تاب منذ زمن، وهو رجل طهّره الحب،

وقد لمحت في نظراته بريقًا لم يلتمع في عيني أيّ رجل آخر صادفته!!

اذهبوا كلُّكم إلى الجحيم.. ودعوني أعيش حياتي.. كما أريدها لا كما تخطِّطون لها، فبعد أشهر قليلة، ستنتهي هذه الزّوبعة، وسوف تنزعوني إلى الأبد من ذاكرتكم، وعندما يأتي المساء، سيأنس كلّ واحد منكم برفيقة دربه، دون أن يفطن إلى وحدتي وضجري!

ذات صباح أشرقت الشّمس، وخرج النّاس إلى أعمالهم كالمعتاد، لكنّها لم تصح من نومها أبدًا! وهناك بجانبها على السّرير كانت ترقد سكين ملطّخة بدمائها.. بينما على الرّصيف المقابل لبيتها.. وقف رجل ما ينتظرها وفي يده وردة حمراء!

انتقام

منذ مدّة وأنا ألمح في عينيها حزنًا دفينًا. أحيانًا يخيّل إليّ أنّها تصوِّب نحوي نظرات مليئة بالحقد. أحاول أن أقنع نفسي أنّي واهمة.. لكنّ تصرفّاتها تدلّ أنّها تكرهني! ومما يزيد في ألمي أني كلما بحثت في زوايا ذاكرتي.. ازددت اقتناعًا أنّه لا توجد مبرّرات كي تسيء معاملتي. فأنا لا أقف في وجه رغباتها. أتحمّل بصبر نزقها وطيشها. أنقدها برفق. أتجنّب أن أعنِّفها. أعطيها كلّ ما تطلب من نقود، فالمرحوم ترك لنا ثروة، وهي ابنتي الوحيدة. فلم تبادل حبّي لها بكلّ هذه القسوة؟ فكّرت مرارًا أن أسألها...؟؟ إلّا أن شجاعتي كانت تخونني.. ربّما لأنّ نار الشكّ أرحم من برد اليقين!

كان وجهها مكفهرًّا، وهي تصبّ لي فنجانًا آخر من الشّاي، فقلت لها: رأيت اللّيلة منظرًا مفزعًا.. ثمّ حمدت الله أنّه كان مجرّد حلم.

نظرت إليّ شزرًا.. لم تجبني.. فتابعت: تصوّري أنَّ أصابعك كانت تطوّق عنقي. كدت تخنقيني.. لولا أنّي صحوت في اللّحظة المناسبة!

أفزعني صمتها.. وتلك النّظرات المُطلّة من عينيها، فسألتها: ألم تسمعيني؟".

أجابت ببرود: لقد تحقّق حلمك بأسرع مما تتوَّقعين! وضعت لك السمّ في الشّاي.. لأنّك يجب أن تشربي من نفس الكأس التي سقيتها له!

سألتها بفزع: ماذا تقصدين؟ لا شكّ أنّك تمزحين! ثمّ أنّي لا أعرف عمّن تتحدّثين؟

صرخت في وجهي: كفاك ادعاء للبراءة! والدي مات مقتولًا. جرعة زائدة من الدّواء.. وشهادة وفاة مزوّرة.. ليبدو الأمر طبيعيًّا! والآن قولي لي ما هي الخطوة القادمة. متى سنحتفل بزفافكما أنت وابن خالك الدُّكتور فؤاد؟

يا إلهي!! ابنتي تحمّلني مسؤوليّة موت والدها. أربع سنوات وهو لا يستطيع الحركة تفانيت خلالها في خدمته وأخلصت له. ربّما سمعتني ذات مرّة أشكو لقريبي الدُّكتور فؤاد من التعب.. لكنّني لم أفكّر أبدًا بقتله أو التخلُّص منه!

حاولت أن أنهض لأصفعها.. وأردّها لصوابها.. وأفهمها أنّها بَنَت اتّهاماتها على شكوك وأوهام.. لكن قدماي لم تسعفاني

على الوقوف. يبدو أنّ الوهن بدأ يدبّ في جسدي.. بينما أخذت أحسّ بثقل في رأسي وجفاف في حلقي.

أغمضت عينيّ مستسلمة لقدري. وسألت نفسي: هل تراها حقًا وضعت السمّ في الشّاي؟ أم لعلّها فقط تتلاعب في أعصابي!!!

تناهى إلى سمعي صوتها وهي تقول: وضعت السمّ في إبريق الشّاي، وليس في فنجانك فقط. أنا أيضًا لا أستحقّ أن أعيش، فقد تستّرت شهورًا طويلة، على جريمتك النكراء.. ودم أبي لا يجب أن يذهب هدرًا!

صراع

ليل. سكون. ضوء خافت متسلّل من نافذة. نظرات تائهة. فكر مشغول. تساؤلات حائرة: "لماذا تكبّلني قيود كثيرة لا أؤمن بها.. ومع ذلك لا أستطيع التحرّر منها؟!".

"أمن العدل أن يوصم الإنسان بالعار، إذا سبق أهل عصره بفكره؟!".

"لو أن أهلي ليسوا أهلي.. وهذا البلد ليس بلدي.. لو أنّي ولدت في قارّة أخرى، أو حتى كوكب بعيد!".

"ربّما سأتمكّن حينئذ من تخطّي السّدود المنيعة.. والقفز عن كلّ الحواجز؟!".

"يا ربّ.. لماذا كتب عليّ أن أخوض هذه التجربة.. لماذا وضعته في دربي.. وأنت تعلم أنّ الطّريق ليست سالكة ولا ممهّدة؟!".

"لماذا أشعر كأنّي أمسك بيدي تفّاحة ناضجة.. أشتهيها.. أتمنّى لو أقضم منها، وفي نفس الوقت تتملّكني رغبة عارمة في الاحتفاظ بها.. دون خدوش؟!".

"هل ليمتدحوا أخلاقي وسلوكي، ويطربوا أذني ببضع كلمات.. ثمّ عندما يعلو حكايتي معه غبار السنين.. لن يفطن أحد لتضحيتي.. ولن يزرعوا على صدري النياشين.. لن يقولوا ما أروعها!! لقد وأدت قلبها، وحطمت سعادتها على صخرة العادات والتقاليد!!".

"وربّما هو أيضًا سيقترن بأخرى.. ومع مرور الزّمن سينساني!!".

عندما أشرقت الشّمس، كان التعب قد أنهكها. ذهبت لموعدها معه وهي تتمنّى أن تقول له، دون خجل، أنّه يحتلّ كلّ مسامّات جسدها، مثلما أخبرها ذات مرّة أنّها مزروعة في شراينه، لكنّها بدلًا من ذلك طلبت منه أن يعطيها مهلة للتفكير!

قال لها بحزن: لكنّنا أضعنا فرصتين من قبل! في جيبي الآن عقد عمل لإحدى دول الخليج. سأخسره إذا لم أسافر خلال أيّام معدودة.

قالت: لا أستطيع أن أتزوّج دون رضا أهلي.. وهم لن يقبلوا بك حتّى لو..

-حتى لو غيّرت ديني!

-افهمني. عندما تساق النّعجة للذبح.. لا يهمّ ما هو لون مقبض السكّين التي ستحز رقبتها! أنت تريدني أن أختار بينك وبينهم، وهما أمران لا أستطيع المفاضلة بينهما. لأنّ أيّ واحد منهما فيه شقائي!

مرّ يوم.. يومان.. أسبوع.. لم يلتقيا.. وما برح طيفه يرافقها.

"أتراه سافر.. لم لا يهاتفها إذا كان موجودًا.. أم أنّه يؤثر أن يمنحها فرصة أخيرة لتحسم أمرها؟!".

استجمعت كلّ شجاعتها. أدارت القرص. جاءها صوت نسائيّ على الطّرف الآخر من الخطّ.

"لعلّها أمه أو أخته" تردّدت هل تسألها مباشرة عنه.. أم تعتذر وتتعلّل بأنّها أخطأت في طلب الرقم؟!".

ظهور أمّها المفاجئ جعلها تعيد السمّاعة إلى مكانها.. دون أن تقول شيئًا.. بينما أخذ قلبها يخفق بعنف، وتحفّزت دموعها للانهمار.

ساعة مرح

أخذت أحتسي فنجانًا من القهوة في مكتب أحد الزّملاء، في انتظار وصول بعض الضّيوف الألمان، الذين سيجمعني وإيّاهم لقاء عمل.

كان هناك زبون طاعن في السنّ، غزا الشّيب شعره، ما فتئ يُقلِّب أوراقًا بين يديه، وهو يدندن أغنية **فريد الأطرش** "**يا حبيبي طال غيابك ليه يا قاسي**". لم يكن معنيًّا بكلمات الأغنية الحزينة، ولا باللّحن الذي أدّاه بنشوز تامّ، بقدر ما كانت تتلبّسه حالة من الفرح والنشوة.

أخذ زميلي يدندن معه، بنشوز لا يقلّ عن نشوزه، بينما راقبت المشهد بصمت وقلت لنفسي: "ما أجمل أن يملك الإنسان روحا مرحة، وقلبًا محبًّا للحياة، حتّى لو تقدّم به العمر! ما

أجمل أن نعيش اللحظة، بكلّ تجليّاتها، دون أن نفسدها بالتحسّر على ماض فات، أو الحزن على تفاهات، أو حمل ضغائن تثقل القلب، لأنّ العمر كلّه زائل. أن العمر أشبه بحفنة من الرّمال، تتسرّب شيئًا فشيئًا من بين أصابعنا، حتّى تتلاشى كليًّا. وما أصعب أن نكتشف، بعد فوات الأوان، أننا أضعناه دون أن نعيشه ودون أن نستمتع به".

صحوت من تأمّلاتي، عندما قيل لي أن السيّد "**توماس هاكمان**" وفريقه في طريقهم إلى المكتب. حملت ملفّاتي التي سأناقشها معهم، وسرت باتجاه غرفة الاجتماعات، يتبعني زميلي "**أبو السعيد**" بعد أن ودّع ضيفه، وروح المرح ما زالت ترافقه.

***-كتبت في شهر أكتوبر سنة 2020**

العيد في جنين

منذ أن هُجِّرت أم سليم، مع من هُجِّروا، من مخيّم جنين، وهي تعيش مع ولدها الوحيد، وعمره سبعة أعوام، في أحد مراكز الإيواء، دون أن تفقد الأمل في العودة إلى المخيّم الذي عاشت فيه مع زوجها حياة بسيطة وهادئة، تعوّدت خلالها، كغيرها من الأهالي، أن يصنعوا الفرح من أبسط الأمور.. إلى أن جاء يوم، اقتحم فيه جنود الاحتلال المخيّم، وبدؤوا بتجريف البيوت والشّوارع والتنكيل بالناس. شنّوا حملة اعتقالات واسعة، وأخذوا، بالقوّة، يخلون البيوت من سكانها. وحين تحدّاهم أبو سليم رافضًا مغادرة منزله، الذي كانوا ينوون تفجيره، عاجلوه ببضع رصاصات جعلته يرتقي شهيدًا.

مرّت الأيّام واقترب العيد. ليس لدى أم سليم ما يكفي من النّقود لتشتري ثيابًا جديدة لسليم، لكنّها رغم قلّة الإمكانيّات، صنعت، هي والنساء في مركز الإيواء، بعض الكعك ليدخلن شيئًا من الفرح إلى قلوب أبنائهن.

وفي صبيحة يوم العيد، أخذت أم سليم ولدها لزيارة قبر والده.

وضع سليم على القبر بعض الكعك، وقرأ سورًا من القرآن، ثمّ قال مخاطبًا والده: " كنت دائمًا تقول لي يا أبي أنّ الرّجال لا يبكون. لن أبكي بعد اليوم. لقد كبرت. سأهتمّ بدراستي. سأعتني بأمي. وسأعيد بناء بيتنا أفضل مما كان".

في طريق العودة كان هناك أفراد من الشّرطة يتعاركون مع شابٍّ عشرينيّ، ما لبثوا أن قيّدوا يديه، وعصبوا عينيه، وزجّوا

به في سيّارتهم، التي انطلقت بعيدًا، مخلِّفة وراءها الكثير من الغبار.

ما كاد سليم يعود، مع أمه، إلى مركز الإيواء، حتّى أخرج من حقيبته المدرسيّة دفترًا وقلم رصاص. وبدأ يرسم صورًا متعدّدة للمنزل الذي سيبنيه عندما يكبر، ليحلّ مكان المنزل الذي هدّمته قوّات الاحتلال. أمسك بالصّور ليريها لأمه. احتضنت أمّ سليم صغيرها بحب وحنان، وانحدرت على خدّيها دمعتان، إذ تخيّلت نفسها مكان أمّ الشابّ الذي اقتادوه إلى جهة غير معلومة ومصير مجهول.. ثمّ بكت بحرقة أكثر.. لأنّ أبا سليم لم يوقظها من نومها هذا الصّباح على صوت تكبيرات العيد، كما اعتاد أن يفعل.

***-كتبت في شهر حزيران 2025**

رغيف مغموس بالدم

في أحد أحياء غزّة القديمة عاش أبو يوسف مع زوجته وأولاده الأربعة في خيمة نصبت على أطلال منزلهم القديم الذي تهدّم أثناء نزوحهم إلى الجنوب.

كانت وجوه الأطفال شاحبة لأنّهم لم يذوقوا شيئًا من الطّعام منذ يومين. نقّل أبو يوسف بصره بينهم بحزن، وتأمّل وجه زوجته التي تحاول أن تخفي ألمها بابتسامة وقال: " أنا ذاهب إلى التكيّة. قالوا إن هناك طعامًا اليوم".

أجابته زوجته: "الله يحميك يا أبا يوسف". ولا تدري لم شعرت بانقباض في صدرها!

سار أبو يوسف مسافة طويلة، حتّى وصل إلى التكيّة. كان هناك طابور طويل، حشر نفسه بين صفوفه. وبين الأيادي

المرتجفة، استطاع أخيرًا أن يحصل على كيس صغير فيه بعض الخبز الدافئ، ووعاء فيه قليل من حساء العدس. غمرته السّعادة بهذا الكنز الذي يحمله بين يديه.

في طريق العودة، سمع قصفًا عنيفًا، استهدف الجموع التي تصطف لأخذ المساعدات. حدث انفجار كبير؛ وتساقط الكثير من الشّهداء.

حلّ الغروب ولم يعد أبو يوسف. أوصت أم يوسف ابنتها الكبرى أن تعتني بإخوتها الثلاثة، ريثما تعود، وخرجت لاستطلاع الأمر. عندما اقتربت من التكيّة، رأت الناس يتجمهرون، وشاهدت جثثًا كثيرة، بحثت بينها عن أبي يوسف، فوجدته مستلقيًا على الأرض، في يده أرغفة محترقة، بينما اندلق وعاء العدس واختلط بالتراب.

احتضنت أم يوسف زوجها وأخذت تبكي. ما زال الأولاد يتضوّرون جوعًا، ووالدهم الذي ذهب ليبحث لهم عن طعام، صار هو طعامًا لآلة الحرب الوحشيّة!

بعد تشييع الجثمان، قرّرت أم يوسف أنّها ستعلّم أبناءها أن يفخروا بوالدهم دائمًا، لأنه عاش بكرامة، ومات كما يموت الأبطال.

***-كتبت في شهر حزيران 2025**

امرأة من تعب وصمود

في الجزء الشرقيّ من مدينة غزّة، حيث يقع حيّ الشجاعيّة، جلست أم مسعود على أطلال بيتها الذي لم يعد بيتا بل أطلالًا من الحجارة والرّماد. كانت امرأة أربعينيّة، تبدو أكبر من سنّها بكثير، نظرًا لما عانته من أهوال تركت بصماتها على وجهها، فبات مجعدًا، يحمل آثار سنين من الفقر والصبر والمعاناة.

في ليلة لا تنسى، حلَّ الظلام مبكِّرا، لا كهرباء، لا أمان، لا نوم. جلس جميع أفراد العائلة في الغرفة الداخليّة يتلون شيئًا من القرآن ويهمسون بالدّعاء.

ثم جاء صوت يشبه القيامة. انفجار هائل، أخذ كلّ شيء الزوج الحنون والأطفال الثلاثة.

استيقظت أم مسعود تحت الرّكام، تتنفّس بالكاد، وفي خاطرها سؤال واحد: أين هم؟

بعد ساعات من الحفر أخرجت. نقلت إلى المستشفى المعمداني. جسدها محطّم لكن قلبها ينزف أكثر. سألتهم عن أبي مسعود.. صمتوا. سألت عن أبنائها.. لم يجيبوا.

أصبحت وحيدة. البيت الذي كان يضجّ بالحياة صار قبرًا واسعًا للذكريات. لكنّها لم تنهزّ. قرّرت أن تنفض عنها غبار التعب، وتنهض كما الفنيق.

بعد عشرة أيام استجمت قواها، وقرّرت أن تمارس بعض نشاطاتها، التي كانت تقوم بها قبل الحرب، حين كانت تعمل بالتدريس. أخذت تجمع حولها الأطفال، تعلّمهم القراءة والكتابة، تلاعبهم، وتغنّي لهم. وتضمّهم إن بكوا، وتمسح على

رؤوسهم. قالت بهدوء: كلّ طفل في غزة هو ابني منذ اليوم. مسعود مات، ولكن كلّكم مسعود.

وهكذا تحوّلت من أم لثلاثة أطفال إلى أمّ لكلّ أطفال غزة. فقدت كلّ شيء، لكنها لم تفقد إيمانها بأن الغد دائمًا أفضل.. وأن النّصر ذات يوم آت.

كتبت في شهر حزيران 2025

يوم حزين

اليوم الأخير من شهر آذار 2021 الساعة حوالي السابعة صباحًا. ما كادت الحافلة القادمة من الزرقاء تلفظني من جوفها، مع آخرين، في مجمّع المحطّة، حتى بدأت السماء تعزف لحنا متسارع الإيقاع، أخذت نغماته تتساقط بغزارة على الأرض، محدثة جداول اختلط ماؤها النقيّ بالغبار والأتربة، التي تكسو أرض المجمّع. وسعت خطواتي متحاشية، قدر الإمكان، أن تغوص قدماي في الأرض الموحلة.

فجأة اعترضت طريقي امرأة طاعنة في السنّ، تمشي على ثلاث. مدّت لي يدها، وقالت تستعطفني: "أرجوك ساعديني". شيء ما في وجهها شدني إليها وأشعرني بصدقها. نظرت بحزن إلى النّهرين الجاريين على خدّيها، كأنّها تشارك السّماء في عزفها.

دون تردّد، ودون تفكير، ناولتها قطعة معدنيّة من فئة النّصف دينار، كنت أطبق عليها بيدي اليسرى. وتابعت المشي إلى موقف باصات كليّة حطّين. أخرجت من حقيبة يدي نصف دينار آخر، ناولته لكونترول الباص الذي نزلت منه عند الجامع الحسيني.

وتابعت طريقي، ككلّ صباح، سيرًا على الأقدام، إلى شارع الأمير محمد، وسط البلد، حيث تقع الشّركة التي أعمل بها.

بدأت أعمل بفكر شارد. صورة المرأة العجوز، التي حفظت ملامحها جيدًا، لم تبرح خيالي. لمت نفسي بشدّة لأني لم أعطها مبلغًا أكبر، مع يقيني أنّ هذا ليس هو الحلّ الناجع لمشكلتها. عندما عدت إلى بيتي في المساء، كانت السّماء قد توقّفت عن العزف وانقطع المطر. لكنّ السُّحب الركاميّة كانت تتجمّع في صدري. حاولت، بكلّ طاقتي، ألا أدعها تمطر.

صورة المرأة العجوز التي التقيتها في الصباح ما زالت تسكنني. لا أدري لم تخيّلتها ضحيّة عقوق الأبناء؟! إحساسي العميق بالشّجن، لم يكن مبعثه فقط، حزني عليها وتعاطفي معها. كانت هي بمثابة الجمرة التي اشتعلت، مخلِّفة وراءها كثبانًا هائلة من الرّماد، الذي يخفي خلفه شلاّل أحزان!

عادت بي الذاكرة سنوات كثيرة إلى الوراء، حين دخلت تلك الشّركة لأول مرة، شابّة في العشرينات، في صدرها أحلام كثيرة لم تتحقّق. فرحت بأول راتب تتقاضاه لأنّها كانت تعيل أسرتها التي هي مصدر سعادتها.

اليوم صافحت جميع الزملاء، وتأمّلت بحبٍّ كلّ شيء في مكتبي، قبل أن أغادره إلى غير رجعة!

ذهب الذين أحبهم، ولم تعد عندي أسرة أعيلها. ووظيفتي صارت شيئًا من الماضي. ليس من السّهل على الإنسان أن يطوي حقبة من حياته، كان خلالها شعلة نشاط وحركة، ليبدأ صفحة جديدة؛ يستكين فيها للرّاحة والخمول، ويقتات الضَّجر! لا لن "أموت قاعدة".

سأبدأ منذ الغد في البحث عن شيء ما أشغل به أوقاتي. لن أستسلم للراحة. الراحة فقط للأموات، أما الأحياء فيجب أن يظلّوا كالنّهر الجاري، الذي يتجدّد باستمرار، يتدفّق.. حتّى لو اعترضت طريقه الصّخور.. يفتّتها ويمضي.. ولا يعود أبدًا للوراء.

***-كتبت في 31 آذار 2021**

عنوان البريد الإلكتروني

hanna.afaf@gmail.co

الفهرس

الموضـــــــــوع	رقم الصفحة
مقدمة	5
امرأة	6
المأتم	16
العانس	23
حفلة راقصة	30
ثرثرة في المكتب	40
خيانة	47
طقوس حزينة	51
اللقاء الأخير	53
وحيدة	54
العيد	55
الخريف	56
ثلاث حالات للعشق	57
مراهقة	59
موعد	60
ضياع	62

يوم ماطر	64
قاع المدينة	69
الفرح المر	74
لوحة	78
عصفورتان	81
كرسي الاعتراف	84
براءة	86
انفعالات	88
لوعة البنفسج	90
اغتيال	93
انتقام	96
صراع	100
ساعة مرح	105
العيد في جنين	107
رغيف مغموس بالدم	110
امرأة من تعب وصمود	113
يوم حزين	116